[رؤى كَـاتِب]

حينَ يَبكي الصمتُ...

تَسَلَّلَ البردُ الشديدُ إلى جَسَدِهِ قبلَ أنْ تراهُ العينُ...

كانتِ الساحةُ واسعةً، مبللةً بطلِّ الفجرِ الذي لم تشرقْ شمسُهُ بعدُ...

وفي المركزِ تماماً، وقفتِ الملكةُ؛ بعظمةٍ ساكنةٍ، يحيطُ بها صمتٌ ثقيلٌ، كأنَّ الزمانَ توقفَ عندها...

نظر إليها الفتى...

ثم تحرك على الارض الرخاميةِ بخطوات حذرة واحدةً تلوَ الأخرى...

كانَ صوتُ حذائِهِ الممزقِ فوقَ الحجرِ البارِدِ يدوّي كصرخةٍ مكتومةٍ...

ثيابُهُ القديمةُ، التي بَهَتَتْ ألوانُها تحتَ غبارِ السنينِ، كانتْ تلتصقُ بجسدِهِ الضعيفِ ... كجِلْدٍ ثانٍ لا يَحْميهِ منَ الصقيعِ...

توقفَ في منتصفِ الطريقِ.

رفعَ كفَّيْهِ المتيبستينِ؛ أصابعُهُ كانتْ تميلُ للزرقةِ من شدةِ البردِ...

قَرَّبَهُما من فَمِهِ، وأطلقَ فيهما أنفاسَهُ الدافئةَ...

رأى البخارَ الخارجَ من صدرِهِ يتراقصُ أمامَ وجهِهِ للحظةٍ قبلَ أنْ يختفيَ في الهواءِ البارِدِ...

كانتْ محاولةً يائسةً لطلبِ الدفءِ من جسدٍ تَعِبَ من كلِّ شيءٍ...

هنا، انكسرَ جدارُ الصمت.

دون أن تَنطقِ الملكةُ بكلمةٍ، لكنَّ حركتَها كانتْ أسرعَ من الظنونِ...

مَدَّتْ يديها، وكأنها تخلعُ عن كاهِلِها ثقلَ السنينَ وقيدَ السلطةِ الذي كانَ يلفُّها، لتُصبحَ دعوةً مفتوحةً للراحةِ والأمانِ...

كانَ في اتساعِ ذراعيْها ملجأً يَدْعُو للنجاةِ.

ارتمى الفتى في حِضنِها. أحسَّ بدفءِ جسدِها يَمْلأُ صَدْرَهُ... غرسَ وجهَهُ في قماشِ ثوبِها الناعمِ، وانفجرَ في بكاءٍ صامتٍ.

كان ارتجافُ جسدِهِ الصغيرِ يهدأُ شيئاً فشيئاً بينَ يديْها، كأنَّ كلَّ شحناتِ الخوفِ والبردِ تفرغت في سكونِها الملكيِّ.

لم تكن دُموعُهُ التي حفرتْ طريقَها فوقَ حريرِ ثوبِها مجردَ ماءٍ مالحٍ، بل كانتْ صرخةً صامتةً تُعلنُ انتهاءَ تلك الحربِ الطويلةِ معَ الصقيعِ... صقيعِ المارَّةِ، وقسوةِ الساحاتِ الخاليةِ، وضجيجِ الأرواحِ المتعبةِ.

في ذلك الحضنِ، تلاشى العالمُ خلفَ جدرانِ الأمانِ.

لم يعدْ فتىً غريباً، ولم تعدْ هي ملكةً بعيدةً؛ بل التقيا في نقطةٍ تتجاوزُ حدودَ الزمنِ... حيثُ لا يُوجدُ إلا قلبٌ استعادَ نبضَهُ، ورُوحٌ وجدتْ أخيراً مَنْ يحتويها...

ففي بعضِ الانكساراتِ، يكونُ البكاءُ هو الطريقُ الوحيدُ لولادةِ فجرٍ جديدٍ لا يَعرفُ البردَ أبداً.

بقلم: أسامة ابراهيم

[رُؤى كَـاتِب] الإسكندرية/ (أبريل ٢٠٢٦) جميع الحقوق الأدبية محفوظة©